قراءة لسانية في النقاط المدونة اللهجائية

الدكتور : عبد الجليل مرتاض

في هذه القراءة اللسانية الشفوية سنحاول أن نلمح الى أن اللسانيات الموضوعية يجب ألا تنظر الى المدونة على أساس أنها سجل أحادي للكلام ، لأن المدونة كيفما تصورناها فهي ليست انتاجاً فردياً بصورة ابداعية مستقلة ، لأنه حتى لو ذهبنا الى أن الكلام إنتاج فردي حقا ، فإن هذا المتكلم لا يسأل نفسه كيف يتكلم خلال عملية الابداع ، خاصة حين يكون هذا الكلام شفوياً ، ولا أحسب أن أحداً منا سأل نفسه نفس السؤال وهو يتكلم ، لأن المتكلم يحيل دوماً على مرجع جاهز تمت المصادقة عليه ، هذا المرجع هو الجماعة اللغوية الكلية ، وليس معنى هذا أن المتكلم الفرد محكوم عليه مسبقاً بالتقليد نسخة طبق الأصل لمن سبقوه ، لكن يعني أن ابداعه لا يخرج عن حدود الفضاء ، التي تواضعت عليه جماعته اللغوية التي وجد نفسه هكذا يحاكي لغتها .

وهو لايكون مبدعاً إلا في إطار هذه المدونة المتواضع عليها ، والتي سمعها من جماعته اللغوية ، وهذه المدونة المسموعة متسلسلة تسلسل المتكلمين وكأنها مجردة من تسلسل خطاباتها ، مما يسمح لكل متكلم نال من خلال فضائها المفتوح ، وجملها غير المتناهية ، أن يدعي ، ولو بشكل من الأشكال ، أنه يقول شيئاً غير ما سمع أو تلقى من المدونة السابقة عليه زماناً ومكاناً ووجوداً ، وإبداعه يكمن في مقاومته المستمرة بأنه لا يقول الشيء نفسه ، وليس في الابداع ذاته ، وإلا أليس الوصف الأفضل للعمل هو العمل نفسه على حد قول تودوروف ؟[1] .

وكم كان قول ملارمي الشهير : «اننا لا نصنع الأبيات الشعرية بالأفكار ، بل نصنعها بالكلمات»[2] جديراً بالاعجاب ، ولربما كان جان كوهين أكثر ممن عبر عن هذه المسألة وضوحاً ، إذ يقول : «وعندما يخلف الشاعر اذن استعارة أصيلة فانما يخلق الكلمات وليس العلاقة ، انه يجسد شكلاً قديماً في مادة جديدة ، وهنا يكمن ابداعه الشعري ، فقد أعطيت الطريقة ، وبقي أن تستعمل ... ان الصور الابداعية ليست جديدة في شكلها بل في الكلمات

الجديدة التي جسدتها فيها عبقرية الشاعر لا غير . وقد يحدث أن يعاد استعمال بعض هذه الانجازات فتسقط لذلك الى مستوى الاستعمال . نحصل حينئذ على هذه الصور الاستعمالية حيث الشكل والمادة ، والعلاقة والكلمات متوفرة سلفاً»[3] .

وفي اعتقادنا أن سماع مدونة يختلف اختلافاً بينا عن قراءة لمدونة أخرى أو حتى لتلك المدونة نفسها ، فالملتقط لمدونة سماعاً لا يسعفه الوقت أو يمهله لتبديل سماع بسماع آخر ، ويجد نفسه مضطراً بين حالتين : القبول أو الرفض ، يتوسط هاتين الحالتين أوصاف أخرى كثيرة كالتحفظ ، والتردد ، والقياس ، والاستشهاد بسماعات أخرى تتفاوت نسبتها بين القلة والكثرة ، بين الأطراد والشذوذ ...إلخ .

وفي تقديرنا أيضاً أن سماع مدونة لا يبتعد عن ظاهرة التبليغ أو التواصل اللساني العام بين الفئات المتكلمة للغة أصلية أو مكتسبة ، ومما يراه جير ولد كاتز أن التواصل اللغوي ينحصر اجمالاً «في إنتاج فونيم سمعي خارجي بإمكان الجميع ملاحظته وتقوم بنيته الصوتية والتركيبية بإرسال أفكار المتكلم وآرائه الحميمية والذاتية ، وفي التقاط البنية الفونيتيكية والتركيبية التي تقدمها هذه المظاهر الفيزيائية التي يقوم بها متكلمون آخرون على شكل خبرة ذاتية حميمة لنفس الأفكار والآراء»[4] .

وان سماع مدونة ما يفترض في ملتقطها سلفا أن يكون متقنا لقواعدها وطرائف وعادات استعمالها حتى تكون هذه العملية ممكنة منذ البداية بين الباث أي صاحب المدونة الأصلية وبين المتلقى أي المستمع «وبما أن التواصل اللغوي مسار يكون المعنى الذي يقرن به المتكلم الأصوات هو نفس المعنى الذي يقرن به المستمع الأصوات نفسها ، فقد يكون من الضروري أن نستخلص من ذلك أن متكلمي لغة طبيعية معينة يتواصلون فيما بينهم في لغتهم ، لأن كلا منهم يمتلك بصورة أساسية تنظيم القواعد نفسه ، ويتم التواصل لأن المتكلم يرسل مرسلة عبر استعمال نفس القواعد اللغوية التي يستعملها المستمع إليه لكي يلتقطها»[5] .

لكن كيف يتم إلتقاط هذه المدونة ، بصرف النظر هنا عن العوامل الخارجية التي كانت تتم فيها هذه المدونة ؟ وهل الأمر متعلق بالسائل أولاً أو المسؤول ثانياً أم العكس هو الأنسب أو الأصح ؟ وبعبارة أخرى من الراغب في التكلم من الراغب في الاستماع ؟... لا نريد هنا أن نسبق الأحداث لإعطاء توضيحات ميدانية لهذه الإشكالية ، لأن الفصل الثالث القادم ربما سيوضح بعضاً منها ، ونبقى في الميدان الداخلي لنشير الى أن المتكلم يختار مرسلة حسب المقام أو

الغرض المثير له ليدفعه الى التكلم ، وذلك لأسباب ليست مناسبة من الناحية اللغوية ، وهذه المرسلة يريد ارسالها «الى الذين يستمعون إليه : فكرة يريد أن يلتقطوها ، أمر يريد أن يعطيه إليهم أو سؤال يريد أن يطرحه عليهم ، ويتم ارسال هذه المرسلة على شكل تمثيل صوتي للكلام بواسطة تنظيم قواعد لغوية يمتلكه المتكلم ، وهذا الارسال يصبح اشارة لأعضاء المتكلم النطقية ، فينطق المتكلم بكلام يتخذ الشكل الصوتي المناسب ، وهذا الشكل الصوتي تلتقطه بدورها أعضاء المستمع السمعية ..... يلتقط هذا التمثيل بواسطة التنظيم المعادل للقواعد اللغوية والعائد الى المستمع ، عبر تمثيل للمرسلة نفسها التي اختار المتكلم أن يرسلها منذ البداية ، ولأن المستمع يستعمل تنظيم القواعد نفسه الذي يستعمله المتكلم للإرسال»[6] .

وتتم عملية التواصل في هذه الحالة بين المتكلم والمستمع على النحو التالي :

المتكلم		المستمع
دلالات		دلالات
ا	إشارات صوتية	ا
تلفظ		تسمع

(ش 1)

إن الجدول السابق يبين عملية التواصل بين الدلالات التي تنتقل من المتكلم الى ذهن المستمع عبر الإشارات الصوتية ، وفي هذه الحالة يقوم المتكلم مقام المرسل ، بينما يقوم المستمع مقام المتلفظ أو المتقبل .

وعلى الرغم من تباين دور المتكلم والمستمع يرتبط الاستماع والتلفظ بعضهما ببعض من خلال تعاملهما مع الاشارة الصوتية الواحدة . فيتوافق ، في الدماغ ، النطق بالأصوات المختلفة والانطباع السمعي الذي تلتقطه الأذنان نتيجة هذا النطق ، نسمي هذا التوافق بين النطق والاستماع بالارتباط الصوتي المتبادل correlation phonetique[7] . بينما يسمى التوافق بين الدلالات في ذهن المستمع وفي ذهن من يرسل له تلك المرسلة بالإرتباط الدلالي المتبادل correlation semantique .

وبناء على الترابط الصوتي المتبادل من جهة ، والترابط الدلالي المتبادل من جهة ثانية بين كل من المرسل والمرسل إليه ، فان الجدول أو المخطط السابق يمكن أن يحوز على الشكل :

عملية التواصل

الإرتباط الدلالي المتبادل

الإرسال .... الالتقاط

الإرتباط الصوتي المتبادل

(ش 2)

وقبل وصف عملية الالتقاط لدى السامع وهو ينصت بكيفية مباشرة أو غير مباشرة أي بتوظيف عوامل خارجية أو يكتفي بما يصله بالمتكلم من ارتباطات لسانية داخلية كالتبادلين : الصوتي والدلالي ، بودنا لو نشير الى أن عملية السماع بين جامع اللغة وبين منتجها أو المتلفظ بها كانت تتم ، حسب تصورنا كالتالي :

هو ـــــ مصدر السماع ومرسل أول للسماع

أنا ـــــ ملتقط السماع ومرسل ثان للسماع

أنت ـــــ المرسل إليك

إن الضمير الشخصي الأول (هو) يجسد الأعرابي في باديته ، والضمير الشخصي الثاني (أنا) يمثل الراوي عن الاعرابي ، وأما الضمير الثالث (أنت) فيمثل المستمع الثاني أو المسجل عن الراوي .

لكن هذه الضمائر لا تثبت على حال واحدة ، فالضميران الشخصيان : الثاني (أنا) والثالث (أنت) هما بدورهما يصبحان سامعين ، لكن أولهما (أول هذين الضميرين (أنا) أقرب إلى الأصل من الثاني (أنت) ثم تتكرر الضمائر الثلاثة عبر الزمن ، بحيث تتشابك دون أن تفقد طابع التقاطع والتعاضد :

هو ـــــ أنا ـــــ هو

أنا ـــــ أنت ـــــ أنا

هو ـــــ أنت ـــــ أنا ....إلخ

والسماع عملية متزاوجة بين المرسل والمرسل إليه ، فهي في سلسلتها الصوتية تمثل شكلا أفقياً ، وتلفظ الباث بها عبر السلسلة الكلامية يحولها الى شكل عمودي .

ـــــــــــــــــــــا (تلفظ الباث بها)
السلسلة الصوتية

لكن عملية التلفظ هذه لن تلبث أن تتحول الى خط أفقي ، والتلقي لها الى خط عمودي .

ـــــــــــــــــــــا (تلقي هذا التلفظ)
عملية التلفظ

(ش 4)

وإذا أردنا أو حاولنا على الأقل أن نتصور اليوم كيف كانت تتم تلك العملية بين الراوي والمروي له ، فان الوقائع اللسانية كانت تترابط بينهما وفق تصورات ذهنية معبر عنها بصور سمعية مستخدمة لهذا الغرض «فالدماغ ينقل الى أعضاء النطق ذبذبة ملازمة للصورة ، ثم تنتشر الموجات الصوتية من فم المتحدث (أ) الى أذن المتحدث (ب) في اتجاه معاكس : إذ يتم الانتقال الفيزيولوجي للصورة السمعية من الأذن الى الدماغ ، وفي الدماغ نفسه يعقد الترابط النفسي بين هذه الصورة والتصور الذي يقابلها»[8] .

ويتصور دي سوسور عملية التواصل بين المرسل والمرسل إليه أو بين النطق والسمع :

نطق　　　　　　　　　　　　　　　　　　سمع

ص ت　　　　　　ت = تصور　　　　　　ص ت

ص = صورة سمعية

سمع　　　　　　　　　　　　　　　　　　نطق

(ش 5)

ويبدو أن مخطط سوسور السابق يمزج بين الكلمة في شكليها التصوري وصورتها السمعية وبين هذه الكلمة نفسها ومن يلفظها ويستقبلها ، لأنه لا يمكن فهم فكرته هذه إلا بإحالتها على المرسل والمرسل إليه ، ولا تخص أحدا منهما دون الآخر فضلاً عن أن تخص الكلمة وحدها

بين كيانها الصوتي وانعكاسه كصورة سمعية في ذهن المتلقي ، حتى كأن المتكلم ينوب عن السامع على الرغم من أحدا منهما لا يقوم جوهرياً مقام الآخر ، لأن المتكلم لا يفكر لحظة واحدة في الكيان الصوتي أو الدال بقدر ما يفكر نفسياً في التلازم بين هذا الكيان الصوتي وبين ما يدل عليه ، وهو الأهم ، انطلاقاً من أن المدلول لا ينبغي أن يكون اعتباطياً ، وهذا أن نهمل القول بأن الكيان الصوتي المنعكس في ذهن السامع أو الملتقط هو كيان صوتي فيزيائي وفي الوقت نفسه كيان صوتي فونولوجي .

على أي حال ، أن عملية التواصل بين الراوي والمروي له لا تعدو أن تخرج عما هو مألوف في عملية التواصل العادية والتي وضحتها اللسانيات منذ أمد بعيد ، حتى وان كان منطلقها العلمي لم يتبلور إلا في هذا القرن بشكل جلي بفضل المعلومات الغزيرة التي قدمتها علوم الاتصال وعلوم أخرى الى اللسانيات المعاصرة ، وهكذا فان التبادل للتواصلات بين الراوي الأصلي والمروي الأول له كانت تقوم ، حسب مخطط سوسور السابق ، على ما يلي :

1) المتكلم ، بفعل اثارة للكلام ، يتصور الفكرة ويرفقها بصورة ذهنية للفظة التي تعبر عن ذلك التصور .

2) يتكفل المتكلم بنطقها .

3) تنتقل اللفظة بين هذا المتكلم وسامعه عبر الإشارات الصوتية .

4) يلتقطها السامع بصورة نهائية حيث ينتهي تملص المتكلم منها .

5) يتكفل المرسل إليه أو السامع بتفسيرها من حيث هي صورة صوتية فونولوجية بصرف النظر عن صفات أصواتها أو احدى العاهات التي يمكن أن تكون في المتكلم بها ، لأننا هنا نفترض سلفا بشكل غير قابل للجدل بأن المدونة المسموعة من هذا السامع متواضع عليها بينه وبين من أرسلها إليه إذ لا يعقل أن تتم هذه العملية بيني وبين صيني اذا كنت أنا لا أفهم الصينية . وحسبنا هنا أن نتذكر قول جير ولد كاتز السابق الذي ينص بوجه خالص على أن متكلمي لغة معينة يملكون بصورة أساسية تنظيم القواعد نفسه ، ولأن المتكلم يرسل مرسلة عبر استخدام نفس القواعد اللسانية التي يستخدمها المستمع إليه ، أي لا فرق من حيث المبدأ العام للغة بين قواعد الراوي والمروي له ، ونحن اليوم لا نتصور أدنى تصور بأن الرواة الذين كانوا ينطلقون من حواضر معينة ليتجشموا وعك السفر ومخاطر الطرقات ، وصعوبة المسالك .... من أجل تعلم قاعدة من أعرابي متكلم في هذه المنطقة أو تلك ، ولا حتى لتعلم جملة أو جمل من

الكلام . ولله در سوسور إذ يقول : «إن الجزء النفسي لا يدخل كليا في الموضوع ، والجانب التنفيذي يظل خارج الموضوع أيضا ، ذلك أن الجزء التنفيذي لا يحدث أبداً عبر المجموعة ، فهو عمل فردي دائما ، وللفرد طغيان دائم عليه ، أنما ندعوه كلاماً ... واذا ما استطعنا جمع الصور الشفوية المختزنة كلها لدى الأفراد ، فربما لمسنا الرابط الاجتماعي الذي يشكل اللغة ، انها كنز يدخره الأفراد الذين ينتمون الى مجموعة واحدة ، عبر ممارسة الكلام ، وهي منظومة نحوية موجودة بالقوة في كل دماغ ...»[9] واذا أردنا اليوم كذلك أن نتصور تلك العملية الشاقة التي كانت تتم بين المرسل والمرسل إليه أو بين الراوي والمروي له ، فان عملية التواصل بين الجانبين كانت تنجز وفق تعدد مصادر المدونة بالنسبة لتراكيبها ومستويات خطاباتها بالشكل التالي :

مصدر المدونة : أ ب ج د

ملتقى المدونة : أ ب ج د ...

فضلاً عن التواضع المفروض بشكل اجباري أو طبيعي بين الراوي والمروي له ، فهناك أيضاً تقاطع حتمي بينهما ، إذ لابد أن يتقاطع أ مع أ ، و ب مع ب ...إلخ .

لكن عملية التواصل من خلال المدونة المشتركة بين الراوي والمروي له ، والتي عرضناها بالشكل السابق تظل مع ذلك ناقصة ، لأنها تغفل على وجه الخصوص القناة والسياق ، وهذان الجانبان الأساسيان في أية عملية من عمليات التواصل أو تبليغ مرسلة معينة لم يأخذهما سوسور بعين الاعتبار ، لأن اللغة بالنسبة إليه لا توجد فيها إلا الصور السمعية ، بل هي مستودع لهذه الصور السمعية[10] . لكن جاكبسون قد أصلح تصور سوسور لعملية التخاطب بمخطط آخر يعده اللسانيون مخططاً أساساً كلما أردنا أن نتواصل أو نكشف سير ولعبة التواصل لدى غيرنا ، ومخططه كما يلي[11] .

السياق

المرسل . . . . . الرسالة . . . . . المرسل إليه

الإتصال

رموز الإتصال

وبالنسبة إليه أن «كل واحد من هذه العناصر الستة يعطي نشأة أو ولادة لوظيفة لسانية مغايرة ، ولنقل هكذا على الفور ، بأننا اذا ميزنا حالات aspects أساسية في الكلام ، فسيكون من الصعب علينا أن نجد الرسائل(messages) التي كانت تشغل حيزا واحدة فقط ، ان تنوع الرسائل لا تكمن في احتكار احدى الوظائف للأخرى ، بل في اختلاف الترتيب فيما بينها»[12] .

ويعد استطراد لساني في بيان كل وظيفة من الوظائف الست ، يجعل لكل عنصر من العناصر الستة في مخططه السابق وظيفة تقابله[13] .

مرجعية

انفعالية ـــــــ انشائية أو شعرية ـــــــ ندائية

اقامة الاتصال

ما وراء اللغة

(ش 8)

ومن المخططين السابقين لرومان جاكبسون نرى أن المتكلم الذي يقابل في مدونتنا الراوي تقابله الوظيفة الانفعالية حتى كأن هذا الراوي لا يدلي بمدونته التي يختزنها في دماغه أو جهازه اللغوي الداخلي إلا بعد انفعاله بينما يقابل المتلقي المروي له في مدونتنا المنقولة عبر هذا المتلقي الوظيفة الندائية ، ونلاحظ من نفس المخطط السابق أن المروي له من حيث المبدأ لسانياً لا يستطيع أن يواجه مدونته وجها لوجه اذا ما كان مجرداً من تواضع كلي أو عريض مع من ينتج أو يرسل هذه المدونة .

وهذه العناصر الستة هي متضامنة في عملية التبليغ الكلامي ، وعلى ضوئها يمكن وصف عمل المستمع أو المروي له خلال عملية التواصل على النحو التالي[14] .

1 – يصغي المستمع الى الكلام الموجه إليه .

2 – يحلل المستمع عناصر الكلام الصوتية بالتوافق مع المهارات الفونولوجية التي سبق له أن اكتسبها من نفس اللغة الموجهة إليه .

3 – يتقبل المستمع الكلام باعتباره أنه يؤلف جملاً صحيحة تماشياً وتنظيم القواعد نفسه والذي بحوزته .

4 – يتقبل المستمع المدونة الموجهة إليه من الراوي المرغوب فيه حيث يعطيها التفسير الدلالي الملائم بها ، والذي لا يدرك كنهه إلا بالتعارض مع مدونة أخرى .

5 – يستفهم المستمع هذا الكلام .

6 – أخيراً ، يتأكد المستمع من ملائمة هذا الكلام الذي هو بصدد سماعه نفس التنظيم الذي يعرف في محيطه العام .

وفي ضوء الضمائر الثلاثة السابق ذكرها من هذا الفصل (هو ، أنا ، أنت) ، فانه يمكن تصور النصوص المسموعة بأنها تشكل زمنا للسماع وزمنا آخر للرواية ، وتكون المدونة المبلغة قائمة على ما يمكن أن نسميه بالثنائية الزمنية ، لأن السامع أو المروي له بعد رغبة وارادة منه بشكل من الأشكال لا يروي لنفسه بل من أجل اقامة صرح لساني أو تفسير دلالي ونحو ذلك حتى كأن السامع يقوم بقراءة شفوية فضائية لما ينعكس عليه عبر كيان صوتي فونولوجي يتفوه به المتكلم أمامه ، وهذه العملية تتم وفق التصور التالي :

محال إليه

ناقل لغة ناقل لغة

مرسل ـــــــ مرسلة ـــــــ مرسل إليه

رموز الإتصال

(ش 9)

محال إليه

ناقل لغة محال إليه

مرسل إليه ـــــــ مرسلة ـــــــ مرسل

رموز الإتصال

ومن المخطط السابق الذي رسمناه يتبين أن هذه العملية كما كانت تجري فعلا عملية شاقة ومعقدة ، لأن المتلقي الأول أي السامع هنا محكوم عليه بأن يتحول الى ارسال مباشر صوب متلق آخر ينتظره شفوياً أو كتابياً أو هما معا ، ولذا فان هذا المخطط ليس مكرراً بدون

جدوى ، وبعبارة أخرى ، فان المرسل إليه ، وهو السامع للمدونة هنا ، يضحي فوراً بعد سماعه مرسلاً نحو مرسل إليه آخر ، وهكذا .

إن أول صفحة من كتاب النوادر لأبي زيد الأنصاري تجد فيها «قال أبو حاتم ، قال لي أبو زيد ما كان فيه من شعر القصيد فهو سماعي من المفضل بن محمد الضبي ، وما كان من اللغات وأبواب الرجز فذلك سماعي من العرب»[15] وقد يعكس هذا القول بعد هذه الصفحة مباشرة ، أي ما كان فيه من الرجز فهو سماعي من المفضل ، وما كان فيه من قصيد أو لغات فهو سماعي من العرب ، وبالرجوع الى الشكل السابق نستطيع ان نكتب :

المرسل (الراوي الأول) ـــــ الشعر ـــــ المرسل إلي (المفضل)

المرسل إليه الثالث ـــــ الشعر ـــــ المرسل إليه الثاني (أبو زيد ثم مرسل ثان)

(أبو حاتم)

ش 10)

إن الشكل السابق يرسم ما تلقاه سماعاً أبو زيد من المفضل ثم ما تلقاه أبو حاتم من أبي زيد ، لكن ما سمعه أبو زيد ورجز من العرب ، فانه يرسم على النحو التالي :

المرسل (العرب) ـــــ لغات ورجز ـــــ المرسل إليه (أبو زيد)

مرسل إليه (مفترض) ـــــ لغات ورجز ـــــ مرسل إليه ومرسل (أبو حاتم)

(ش 11)

والفرق بين الشكلين أن المرسل إليه في (ش 10) معلوم وهو شخصية تاريخية ، بينما المرسل إليه الثالث في (ش 11) مجهول ، لكنه مفترض اجبارياً بصرف النظر عن شخصيته المعينة ، والملاحظة الأخرى أنه على الرغم مما حكاه أبو زيد بأن شعر القصيد سماعي من المفضل ، إلا أن مصدر السماع الأصلي أو الأول واحد ، ألا وهم العرب الذين ارتضى جماع اللغة السماع عنهم .

إن ما سمعه أبو زيد وغيره من جماع اللغة عن العرب في بواديهم من شعر ورجز ولغات وأمثال ... لا يعدو في حقيقة أمره نماذج تركيبية لسانية ، ولا تمثل إلا نسبة ضئيلة من كلام العرب نوعا وكمية وخطابا ، ولنتصور أحدنا اليوم يحاول أن يسجل كلام الناس الذين يعايشهم ويعايشونه في يوم واحد ، وهذا مع تطور وتوفر الوسائل التقنية والمادية التي كانت منعدمة تماما في تلك الفترة التي كان يتم فيها هذا السماع من قبيلة الى قبيلة ، ومن منطقة الى منطقة ، ومن تعبير لهجي الى آخر ...

وإذا كان التواصل اللغوي بين الراوي والمروي له يرتكز بين الجانبين على استعمال الرموز المشتركة ، وبوجه خاص على توظيف الدلالات ذات التواضع المشترك بينهما ، باعتبار أن اللغة ما هي إلا إنتاج متسق لأنواع الرموز والدلالات[16] ، وباعتبار أن الخطاب «سواء أكان مسموعاً أو حديثاً داخلياً مع النفس هو دائماً قول بصدد شيء معين ، وأن هذا الشيء الذي هو موضوع للخطاب يمكن أن يكون واقعاً مادياً أو واقعياً مجتمعياً أو كياناً سيكولوجيا»[17] ، فهل يستمع أو يتلقى المروي له نظام لغة أم جزءاً فقط من هذا النظام ؟.

مما يبدو أن السامع لا يتلقى نظاماً ولا حتى جزءاً من هذا النظام ، لأن اللغة في ذاتها مدونة متعددة الأنظمة ، والأمر يتوقف قبل أي شيء على المستويات الخطابية التي يتلقاها ، أي على التراكيب اللهجية المتفقة أو المختلفة ، لأنه مهما لبث السامع في البادية ما لبث فانه لا يستطيع أن يحيط بكل التكلمات الفردية التي يسمعها ، بل ربما كلما طال مكوثه بهذا البلد أو في هذه القبيلة قل سماعه أو بعبارة أوضح ، كلما كثر سماعه قل إلمامه ، لأنه في هذه الحالة يلتجيء الى فرز التراكيب وانتقائها ، ويجد السامع نفسه أمام مظاهر فردية علنية من الكلام لا أمام نظام لغوي قائم بذاته ، ولا يمكنه أن يقف على كل التراكمات الخطابية أو الصور الشفوية الموزعة بين الأفراد ...

إننا اليوم بالرجوع الى بعض المدونات المكتوبة في اللغة العربية الفصحى المتشكلة أساساً من اللهجات العربية الباقية وما بقي مستودعاً فيها من مظاهر لهجية عربية بائدة وحتى سامية أقدم مما نتصور ، فاننا نقف على ظاهرة لسانية حقيقية لا تجعلنا نرتاب لحظة بأن هؤلاء الرواة الرواد لم يسجلوا كل ما سمعوا من لغات أو تراكيب لهجية لها بنياتها الطبيعية الخاصة بها .

ولعل ما يسمى بالنوادر ، والشاذ ، وما يسمى بالقراءات الشاذة ... واللغات المذمومة أو الرديئة أو المرغوب عنها ... يبين لنا أن أولئك الملتقطين الأولين لم يسجلوا كل ما سمعوا من رموز ودلالات لسانية بعضها كان لا يزال في طور التكوين أو الإنتشار البطئ بين جماعة لغوية معينة أو مجهولة لدينا اليوم ، وبعضها الآخر أقبر حيث وجد ، وهذه المسألة لا تخص العرب وحدهم بل قد نجدها عند شعوب أخرى سواهم تلك الشعوب التي تعاملت مبكراً مع الشكل المكتوب على حساب أي شكل آخر شفوي أو سمعي ، وذلك على الأقل على المستوى الرسمي ، وما اختراع القواعد لدى الهنود ثم عند اليونان قبل العرب إلا أحد الدلائل على أن هذا الوضع بين الشعوب قديم قدم الدراسات اللغوية نفسها .

لكن هؤلاء الرواد العرب الذين بادروا الى السماع تأكدوا بأن اللغة المحكية بواسطة السماع غير مجد إذا لم تخضع الى الشكل المكتوب ، لأن التراكيب المسموعة خداعة اذا لم تعرض على النظام الكتابي ، لأنه النظام الوحيد الذي يكشف حقيقة هذه التراكيب المسموعة ، والتي قد لا يتناسب شكل نطقها لدى المرسل وشكل سمعها لدى المرسل إليه ، وربما كان هذا في العربية أهون مما نقف عليه في بعض اللغات الأخرى كالفرنسية مثلا ، وسبق لنا أن تناولنا هذا الموضوع في اطار آخر مشابه حين تحدثنا عن البنية الصوتية في اللهجات العربية البائدة ، وما دام الأمر هنا متعلقاً بسماع المدونة لغة حية لا ميتة ، فانا نرى من المناسب أن نورد بعض الأمثلة الأخرى التي تكشف اختلاف اللغة المسموعة عن طبيعة شكل اللغة المنطوقة فضلاً عن اللغة المكتوبة .

1 – بين الفرد والجمع[18] :

نسمع		نكتب
son fis	(ولده)	son fils
ses fis	(أولادهم)	ses fils
son enfan	(طفله)	son enfant
sézanfan	(أطفالهم)	ses enfants

2 – في الفعل المركب المصرف مع كان :

نسمع	نكتب	
je parlé	je parlais	(كنت أتكلم)
tu parlé	tu parlais	(كنت تتكلم)
il parlé	il parlait	(كان يتكلم)
nous parlyon	nous parlions	(كنا نتكلم)

نسمع	نكتب	
vous parlyé	vous parliez	(كنتم تتكلمون)
ils parlé	ils parlaiient	(كانوا يتكلممن)

إن النهايات الثلاث للفعل المركب في اللغة الفرنسية هنا (تكلم) متباينة في ثلاث حالات :

1) é

2) you

3) yé

فالضائر الوحيدة هي التي تقوم بإزالة بعض هذه التناقضات بين اللغة المسموعة والمكتوبة ، إذ لا يوجد أي فرق في مجال السماع لدى المرسل إليه بين il parlait و je parlais ، وكذلك بالنسبة للباقي ، ولذلك فان قول سوسور بأن اللغة عبارة عن مستودع للصور السمعية ، وأن الكتابة هي شكلها المحسوس[19] لا ينبغي تعميمه على كل الصور المسموعة بما فيها الفرنسية التي كان يتقنها هذا الرجل ، وفي العربية هل الكتابة شكل محسوس للصور السمعية : هذا ، هؤلاء ، لكن ، كانوا ؟...

وهذه الأشكال المتعارضة سماعاً وكتابة والمتفق عليها في الآن ذاته دلالياً ، فالى أي فرع تعود من أجل دراساتها وتتبعها الى علم الأصوات أم الى علم الفونولوجيا أم ندعه للدراسات المورفولوجية أم ليس الى هذا ولا ذاك ونترك الأمر على حاله للخطوط الشكلية أو الرمزية تضطلع به ؟

من الصعب جداً أن نجيب على هذه التساؤلات ، لكن من العدل بمكان أن نذكر ما أوردناه من بعض نصوص ابن درستويه حيث وقفنا على ما قد يجيب على بعض هذه التساؤلات ، من هذا قوله «لأن الهجاء يلحق الكلام غير المكتوب أيضاً ... ووجدنا كتاب الله عز وجل لا يقاس هجاؤه ولا يخالف خطه ، ولكنه يتلقى بالقول على ما أودع المصحف ، ورأيت العروض انما هو احصاء ما لفظ به من ساكن ومتحرك وليس يلحقه غلط ولا فيه اختلاف بين أحد»[20] .

على أي حال ، ان الدراسات اللغوية الأولية تنشأ عن تأملات في اللغة المحكية الباقية عبر عامل السماع المتبادل بين متكلميها «ولاشك أن اللغة المحكية أو المنظومة ذات قوانين يراعيها المتكلم بدقة ، ويصدر عنها في كلامه ، ولكنه لا يشعر بالعناء ، بل انه يكاد يفكر فيها ، لأنها عنده لا تزيد على عادات اعتادها منذ أن تعلم اللغة من المحيط الذي حوله ، وعمل اللغوي أن يكشف عن تلك القوانين المرعية ، وأن يوضح القواعد التي يتقيد بها المتكلم الأصيل ... وعلى هذا ، يكون السماع عملية صعبة ، فهو مجموعة من الأعمال ، تبدأ بالتأملات ، وتنتهي بالكشف

عن القواعد ، ويقوم بين البدء والانتهاء التصنيف ، والتقسيم والاستقراء على أن السماع لا يقف عند حدود الاستنباط . بل تناط به أعباء أخرى ، ومن غير العسير تحديد المهمات التي توكل إليه»[21] .

إن السماع عند العرب كان يتم وفق المدونة الشفوية التي كانت تنطق على علاتها ، وأما المروي له فانه كان يعتمد منهجين في سماعه :

1) الاستقراء القائم على وصف ما يسمع من تراكيب لا متناهية لكنها متشابهة من حيث قواعدها لا من حيث خطاباتها ومستوياتها ، لأن السامع كان يصطدم بلهجات جغرافية ، ولهجات اجتماعية ... فضلا عما كان يلاحظه من تكلمات متنوعة لم يجد لها في عجالته وهو في البادية تفاسير لسانيةمنتظمة صارمة ، إذ علاوة على النوعين السابقين من السماع الذي يصطدم به ، فانه كان يصطدم بتلك التكلمات التي ترجع الى لغة واحدة ، كان يلاحظ أن لغة تحتوي على لهجات متنوعة مثل لهجات : ل1 ، ل2 ، ل3 ... ل ن .

هذه الأضراب من اللهجات على الرغم من انتائها بشكل من الأشكال الى اللغة الواحدة (ل) ، فانها تخص بخصائص نحوية أو صوتية أو صرفية ... مستقلة .

ومن غير شك أن المروي له في اطار المنهج الاستقرائي كان يجد نفسه أمام مواقف :

أ – من ناحية يسمع النص أو المدونة

ب – من ناحية أخرى يسجلها أو يحفظها

ج – من ناحية ثالثة يعرض مرة أخرى في هدوء وموازنة ما سجل أو حفظ

د – يعمد الى استخراج القواعد

وبعد هذه الانجازات تأتي مرحلة الاصطدامات بغيره من المرويين لهم الذين عاصروه ورووا من منطقة أو مصدر سماعي يخالف مصدر سماعه هو ، أو من المرويين لهم الذين جاؤوا بعده ورووا على شيوخ يختلفون معه ، وهنا يكون السماع مرة أخرى مصدراً من مصادر التمذهب والتفلسف مثلما كان مصدراً أساسياً في نشأة الدراسات اللغوية ذاتها .

2) الإستنباط : من خلال المواقف الأولية الأربعة التي يمكن للمري له أن يعتمدها لاستقراء مادته اللغوية ، فانه ينطلق بعد ذلك الى البحث عن دليل أو تفسير يبرر ما استخرجه من قواعد بكيفية دون كيفية أخرى ، ولا يجد طريقة للبرهنة بها في هذه الحالة غير النهج الاستنباطي ، ومن خلال هذا النهج يحاول أن يستشف البنية اللغوية العامة ومختلف العلاقات

الداخلية الكامنة بين عناصر ما زعمه لنا من نموذج أمثال أو قالب ... يجب أن يقاس عليه ويحتذى ، لأنه هكذا يتواتر ويتكرر بين أصحاب اللغة الأصلية ، وهو يلتجئ الى وضع هذا النموذج الأصلي من منطلق ايمانه أن الراوي له أو المتكلم الذي سمعه بوسعه أن ينتج عدداً لا متناهياً من الجمل في لغته ، وبعبارة أخرى كان المروي له يدرك تمام الادراك وبوعي كامل بأن وصف أمثال ما يسمع من تراكيب هنا وهناك يومياً من هذه اللهجة أو اللغة يستحيل وصفه بشكل نهائي ما دامت هذه الجمل مرتبطة بالمتكلم وليس بالمرسل إليه ، ولأن هذا الأخير ليس من مسؤوليته الحد من الكلام ، ولكن ارادته تتوقف على الاستقبال ، فمن هنا ترى أنه من غير الانصاف أن نغتر شديد الاغترار بأن هذه النظرية بقيت في عالم الغيب الى أن كان رجل في منتصف هذا القرن ليكتشفها ، لكن أولئك اللسانيين العرب القدماء تعاملوا مع مدوناتهم تعاملاً واقعياً مرتبطاً بالناحية الفنية والجمالية والظاهرة المثالية ، في حين أن تشومسكي تعامل مع هذه النماذج أو القوالب تعاملا صوريا ورياضيا ، ولولا تمسكه بالعامل الدلالي الى جانب الاستقامة النحوية لكان عمله معادلات رياضية فارغة من أي محتوى ، لأن النموذج يجب أن يكون مرتبطاً ببنية اللغة من حيث هي وظيفة بيولوجية إنسانية لا بكونها بنية فيزيائية ، وعليه فان كل مثال أو نموذج حاول العرب أن يؤسسوه راعوا فيه موازاته للموضوع المدروس من حيث هو دال على وظائف ، ويمكن بالتالي استخدام هذا النموذج لدراسة أكثر من موضوع واحد .

إن اللسانيين العرب القدماء فرقوا بين أمرين هامين :

1) التكلم أو النطق دون خطإ ، وهو يتعلق بالطبع أو السليقة ...ل خ .

2) وصف هذا التكلم .

وعليه فعملية السامع أو الملتقط للمدونة كان يعنيه الجانب الثاني بالدرجة الأولى ، أما الجانب الأول فلم يكن من نشاطه ، لكن كان مقتصرا على ملاحظته كأن يحدد المصدر السماعي لمنطقة جغرافية أو قبيلة يعنيها قبل أن يقدم على وصف هذا المتكلم بواسطة ما سمع ثم تأتي المرحلة الثالثة بعد عملية الوصف لما يتكلم أو لما التقطه السامع ، وهي مرحلة التقيد خلال عملية الاستخدام لهذه اللغة في سياق معين ووفق النموذج المعطى الذي رواه السامع ، وهذا لا يعني أن المتكلم يظل جامداً لا يطور عملية كلامه ، لأن مفهوم الكفاءة ، حتى لدى تشومسكي ، «ليست مستودعا ساكنا من الرموز ، لكنها نظام متحرك من القواعد والنظم»[22] ،

الشيء الذي يسمح بإنتاج جمل لا نهائية في كل الأزمنة على مستوى لغة واحدة ، وبالتالي يعطي أو يضفي على اللغة الإنسانية طابع الابداع المستمر والمتجدد بحيث لا تتكرر بنفس الأقوال في مجتمع لغوي واحد .

أما النموذج المستخلص من المدونة المسموعة ، فهو غالبا ما يراعي الجزانب التالية قبل عرضها على متكلم آخر لاستخدام نماذج فرعية على ضوئها[23] .

1) يجب تحديد العوامل اللغوية التي يجب تفسيرها .
2) يجب ايجاد الافتراضات اللازمة لتفسير هذه العوامل .
3) يجب أن يكون باستطاعة الأنموذج توقع أشياء يمكن لخصها فيما بعد والتحقق منها .
4) يجب التأكد من صواب وصحة الأنموذج .

الهوامش

(1) الشعرية ص21 ، تودوروف (ط1987 دار توبقال للنشر ، المغرب) .
(2) بنية اللغة الشعرية ص41 ، جان كوهن (ط1986/1 دار توبقال للنشر ، المغرب) .
(3) م.س. ص44 – 45 .
(4) الألسنة (قراءات تمهيدية) ص79 .
(5) المرجع السابق ص82 .
(6) م.س. ص82 – 83 .
(7) الألسنة (المبادئ أو الاعلام) ص49 .
(8) محاضرات في الألسنة العامة ص23 .
(9) محاضرات في الألسنة العامة ص24 – 25 .

يعود سوسير مرة أخرى الى نفس الموضوع تقريباً حيث يقرر بأن اللغة توجد على شكل مجموعة آثار مرتسمة في كل دماغ على شكل معجم تقريباً ، وتكون جميع نسخة المتماثلة موزعة بين الأفراد ومتموضعة خارج ارادتهم بالصيغة التالية : 1 + 1 + 1 + 1 ....=ج (نموذج جمعي) (المرجع السابق ، ص32) .

(10) راجع محاضرات في الألسنة العامة ص27 .
(11) essai de linguistique génerale, p.213.
R. jackobson edition de menuit 1963
(12) المرجع أعلاه ص214 .
(13) م.س.ص. ص220 .
(14) راجع الألسنة (المبادئ والاعلام) ص51 – 52 .
(15) كتاب النوادر في اللغة ص1 (ط1984 المطبعة الكاثوليكية ، بيروت) .
(16) المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث ص33 تودوروف وآخرون (ط1988 افريقيا الشرق ، المغرب) .
(17) م.س. ص33 .
(18) les langues vivantes, p. 85-88.
Jean Guenot, edition seghers paris 1971
(19) محاضرات في الألسنة العامة ص27 .

(20) كتاب الكتاب ص16 .
(21) أصول النحو العربي ص15 – 16 د. محمد الخلواني (ط1979 مطبعة الشرق ، لحلول حلب) .
(22) علم اللغة : نشأته وتطوره ص195 ، د. محمود جاد الرب (ط1985 دار المعارف ، مصر) .
(23) الألسنية (المبادئ والاعلام) ص166 .

مراجع البحث :

(1) أصول النحو العربي ، د. محمد خير الحلواني ، ط1979 مطبعة الشرق ، حلب .
(2) الألسنية (قراءات تمهيدية) د. ميشال زكرياء ، ط1/1984 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت .
(3) الألسنية (المبادئ والإعلام) د. ميشال زكرياء ، ط2/1983 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت .
(4) بنية اللغة الشعرية : جان كوهن ترجمة : محمد الولي ومحمد العمري ط1/1983 دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب .
(5) الشعرية : تودوروف ، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب) 1987 .
(6) علم اللغة : د. محمود جاد الرب (ط1/1985 ، دار المعارف ، مصر .
(7) كتاب الكتاب : ابن درستويه تحقيق : الدكتوران ابراهيم السامرائي وعبد الحسين الفتلي ، ط1/1977 ، مطبعة الرعاني ، بغداد .
(8) محاضرات في الألسنة العامة : ف.د. سوسير ترجمة : بوسنغازي ومجيد النصر ط1984 دار نعمان للثقافة ، لبنان .
(9) المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث : تودوروف وآخرون ، ترجمة : قنيني عبد القادر ط1988 ، افريقيا الشرق ، المغرب .
(10) النوادر في اللغة : أبو زيد الأنصاري ، ط1984 ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت .

أهم المراجع باللغة الأجنبية :

(1) R. Jackobson, edition de minuit 1963
(2) Jean Guenote, les langue vivante, edition seghers paris 1964-1971.